النّــص الأدبي
بين المعطى اللّغوي والأداء الاصطلاحي

د. سعيد خليفي/ المركز الجامعي بغيليزان

الملخص

يهــتم المقــال بمفهــوم الــنص الأدبي من الناحية اللغوية، ويحاول إيجاد العلاقة المنطقية القائمة بينه وبين ما هو متداول من جهة الاصطلاح، ومن خلال هذه المقاربة أدرجت جملة من الآراء والتعريفات التي أكدت تلك الدلالة المركزيــة للــنص الأدبــي، الــتي تعــني الظهور والاكتمال والغاية، وقد أوردته المعاجم العربية بهذا المفهوم الذي لا يختلف كثيرا عن المعنى النقدي للنص سواء في الدراسات القديمة أو الحديثة، وهــي النتيجــة الــتي تــرى أن التقــاطع بينهما أمر ظاهر وأصيل.

Résumé

Cet article traite le concept du texte littéraire selon une approche linguistique. Il tentera de trouver la relation logique négociant le point de vue terminologique. Suivant cette approche, nous abordons un certain nombre d'opinions et de définitions qui font appel à cette appellation quant à son apparition, son aspect sémantique et son exhaustivité comme terme répandant. Nous nous intéressons en outre à la question du lexique arabe englobant ce concept sur le plan définitoire.

OOO

إنَّ النّـص كمفهـوم يتعلّـق بالكتــابة والإبــداع، يُعــدّ النقطـة الأولى في أيّ عمليّـة تواصليّـة أو غير تواصليّة، لا سيّمـا المكتوبة منهـا، إلاّ أنّ هـذا المفهـوم، ونتيجة لاحتكاك العرب، خاصّــة المعاصـرين، بالأمــم والثقافـات الغربيّـة، قــد جعـل منـه مفهوما نقديّـا يتجاوز، إلى حـدّ ما، تلك المدلولات الّتي وُضعت لــه في

أصل اللغة، لكنّ المؤكّد أنّه يُحافظ على جزء كبير من دلالته اللّغويّة الّتي أوردتها المعاجم العربيّة.

أ ـ النص لغة :

ورد النص في لسان العرب في مادة" نَصَصَ "بمعنى الرّفع والظهور والانتصاب، ونصّ الحديث ينصّه نصّاً ، رفعه، وكلّ ما أُظهِرَ فقد نصّ ... ويُقال نصَّ الحديث إلى فلان أي رفعه... والمنصّة ما تظهر عليه العروس لِتُرَى، وكلّ شيء قد نُصِّصَ فقد أُظهِر، وهناك لفظ النّص والتّنصيص، أي السّير الشّديد والحثّ، وأصل النّص أقصى الشّيء وغايته، ومنه نصّت الدّابة السّير إذا أظهرت أقصى ما عندها.[1]

أمّا الزّمخشريّ (ت 538هـ) في الكشّاف وهو يستعين بالدّلالات اللّغويّة للألفاظ في جهوده للتّفسير، فلا يبتعد عن المعنى الوارد عند ابن منظور في اللّسان، حيث نجد النص عنده يعني الارتفاع والانتصاب؛ فالماشطة تنصّ العروس فتقعدها على المنصّة، وهي تنصّ عليها أي ترفعها، ونصّ فلانٌ سيّداً كنصّ ونصصتُ الرّجل إذا أخفيته من المسألة ورفعته إلى حدّ ما عنده من العلم حتى استخرجته، وبلغ الشّيء نصّه أي منتهاه.[2]

وقد جاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي جملة من التّعريفات لمفهوم النّص، ومنه " نصّ الحديث رفعه، وناقته استخرج أقصى ما عندها في السّير، والشّيء حرّكه، ومنه فلانٌ ينصّ أنفه غضبا، وهو نصاص الأنف والمتاع ، جعل بعضه فوق بعض، وفلانا، استقصى مسألته عن الشّيء، والعروس، أقعدها على المنصّة بالكسر، وهي ما تُرفع عليه فانتصّت، والشّيء أظهره، والشّواء ينصّ نصيصاً، صوّت على النّار، والقدر، غلَتْ، والمَنصّة بالفتح ، الجملة من نصّ المتاع، والنّص الإسناد إلى الرّئيس الأكبر والتّرقيات، والتّعيين على شيء ما، وسيرٌ نُصٌّ ونصيص: جدّ رفيع، وإذا بلغ النّساء نصّ الحقاق فالعصّبة أولى، أي بلغن الغاية التّي عقلن فيها أو قَدرن على الحِقاق، وهو الخصام أو حَوْقٌ فيهنّ، فقال كلّ من الأولياء أنا أحقّ أو استعارة حقاق الإبل، أي انتهى صغرهنّ، ونصيص القوم، عددهم، والنّصّة العصفورة، وبالضمّ الخصلة من الشّعر، أو الشّعر الّذي يقع على وجهها من مقدّم رأسها، وحيّة نصناص أي كثيرة الحركة، ونصص غريمه، وناصه، استقصى عليه وناقشه، ونصنصه ، حركة وقلقلة، والبعير ، أثبتت ركبتيه في الأرض وتحرّكت للنّهوض" .[3]

نخلص من هذه التعريفات إلى دلالة مركزيّة تكاد تحظى بالإجماع والاتّفاق، وهي الظهور والاكتمال والغاية، وهي لا تختلف كثيراً مع المفهوم السّائد للنّص في الأوساط النّقديّة للدّراسات الحديثة والمعاصرة، إلاّ أنّ التمعّن في هذه الدّلالات يبيّن أنّ مفهوم النّص يشير إلى الدّلالة المركزيّة للّفظ، وما به من ظهور واكتمال، وليس إلى تلك المزايا المتعلّقة بالجمال والفنّ، وهذا ما سنحاول التعرض له من خلال هذا المفهوم الاصطلاحي للنص.

ب-النّص اصطلاحا :

إنّ مجال استخدام لفظ النّص في اللغة لا يعرف الحدود، وخاصّة عندما يتعلّق الأمر بمسألة الاصطلاح، فالنّص في علم الحديث هو التوثيق والتّعيين، والنّص عند الفقهاء والمفسّرين، نصّ القرآن الكريم، ولذلك يُقال لا اجتهاد مع وجود النّص، أمّا عند الحقوقيّين وعلماء القانون، فالنّص هو المرجع والمسند الّذي وضعه المشرّع للفصل في المنازعات، ومختلف التّنظيمات والتّشريعات المعمول بها، بهدف ضبط النّشاطات والمعاملات.

أمّا فيما يتعلّق بالطرح الأدبيّ، فهو الّذي يعنينا بشكل كبير في هذا الباب، وخاصّة ما يهتمّ أكثر بالمجالات الإجرائيّة في الممارسة النّقديّة، عندما يتعلّق الأمر بالتّعامل مع النّص الإبداعيّ تحديدا، وما يتضمّنه من تعدّد قرائيّ وتنوّع دلاليّ، يقول خليل أحمد في كتابه معجم المصطلحات اللّغويّة في تعريفه للنّص، بأنّه " يعني في العربيّة الرّفع البالغ، ومنه منصّة العروس، والنّص كلام مفهوم المعنى... وهو النّسج أي الكتابة الأصليّة الصّحيحة، المنسوجة على منوالها الفريد... والنّص المدوّنة، الكتاب في الفئة الأولى، غير المترجم، قرأت فلانا في نصّه، أي في أصله الموضوع، والنّص كلّ مدوّنة مخطوطة أو مطبوعة ".[4]

ولذلك فالنّص هو ما يكتبه الكاتب أو يقوله، ثمّ يُدوّن ليُقرأ بغضّ النّظر عن الكيفيّة الّتي تتمّ بها العمليّة التواصليّة، إلاّ أنّ المؤكّد هو المحافظة على المضمون الدّاخليّ الّذي يقوم على أساسه النّص، والّذي يُشكّل كيانه ووجوده، فيميّزه ويضمن له التفرّد والخصوصيّة، وهذا لا يعني أنّ النّصوص لا تتقاطع فيما بينها، بل هناك ما يُعرف بالتّناص

الّذي أصبح يلمّ شمل النّصوص، وتبقى اللّغة وحدها هي العنصر الّذي يُشكّل الاختلاف والتمايّز.[5]

عرف العرب القدامى علم النّص، وتحدّثوا فيه ونظّروا له، والحقيقة أنّ هذا العلم لم يكن مقصودا لذاته، وإنّما أملته مقاصد أخرى، شكّلت الشّغل الشّاغل لهؤلاء العلماء، وعلى رأسها الدّراسات المتعلّقة بفهم القرآن ، واستنباط أحكامه من جهة، ومحاولة إيجاد قواعد وضوابط من شأنها أن تضمن للّغة العربيّة بقاءها ونقاءها، والّتي هي لغة القرآن قبل كلّ شيء.من جهة أخرى، فقد اختلف هؤلاء العلماء وتباينت آراؤهم فيما يتعلّق بمسألة إعجاز القرآن، بداية من أبي بكر الباقلاني (ت 403 هـ)، الّذي يرى أنّ القرآن نظام لغويّ يقوم " على تصرّف وجوهه وتبايّن مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به ويتميّز في تصرّفه من أساليب الكلام المعتاد. "[6]

أمّا عبد القاهر الجرجانيّ (ت 471 هـ) المعروف بنظريّة النّظم، والتّي تقوم أساسا على أنّ المزيّة في إعجاز القرآن لا تكمن في بلاغته أو ألفاظه أو معانيه، إنّما تكمن في نظمه، وهو أوّل من دعا إلى القراءة الشّاملة الّتي تُعدّ الكفيلة للوقوف على أسرار النّظم القرآنيّ، حيث يرى أنّ الإعجاز " لا يكمن في الكلمات المفردة في جمال حروفها وأصواتها، ولا في معاني الكلمات المفردة التي هي لها بوضع اللغة، ولا في ترتيب الحركات والسّكنات، ولا في المقاطع والفواصل، وإنّما تكمن هذه الخصائص في النّظم والتّأليف اللّذين يقتضيان الاستعارة والكناية والتمثيل، وسائر ضروب المجاز"[7]

أمّا الدّراسات العربيّة الحديثة في هذا المجال، فلا تكاد تعدّ أو تحصى، لا سيّما وأن المدّ الغربيّ في مختلف المجالات لا ينتهي. واعتباراً من مفاهيم متعدّدة، وجد العلماء العرب أنفسهم وجها لوجه مع هذا الواقع الّذي لا يترك لهم الخيرة من أمرهم، بل يفسح المجال واسعا أمامهم للتلاقح والتّبادل. والحقيقة أنّ التطوّر العلميّ الّذي شهده العالم بداية من القرن الثامن عشر، قد نال منه النّقد والأدب قسطا كبيراً من التّطوّر والازدهار، وخاصّة في جنس الرّواية، الّتي يُجمع أغلب المنظّرين والمؤرّخين أنّها ذات منشأ غربيّ محض، ممّا أوجب اعتماد المعايير والأسس الغربيّة، دون إهمال الجهود الطيّبة للعلماء العرب القدامى، ومن النقاد والمنظرين العرب المعاصرين في هذا

الشّأن نذكرعبد الله الغذامي وصلاح فضل ومحمد مفتاح وعبد الملك مرتاض وغيرهم كثير.

يعرّف عبد الله الغذامي النّص بأنّه " بنية لغويّة مفتوحة البداية ومغلقة النّهاية .. ويأتي ليتداخل مع سياق سبقه في الوجود، وهو بنية شموليّة لِبُنى داخليّة : من الحرف إلى الكلمة إلى الجملة إلى السّياق إلى النّص، ثمّ إلى النّصوص الأخرى ."[8]

أمّا محمد مفتاح، فيذهب إلى أبعد من هذا حينما يترك الباب مفتوحا على مصراعيه للقراءة والتّأويل، قائلا إنّ " النّص مدونة، حدث كلاميّ ذي وظائف متعدّدة."[9] فالنّص عنده كلام مكتوب قابل للقراءة، وينفي مختلف الصور والأشكال الأخرى، كالرّسم أو الرّقص أو التمثيل أو غيرها من الأجناس والفنون التّعبيريّة الأخرى، أمّا لفظة "حدث" فتدلّ على الواحديّة الوجوديّة الّتي تتفرّد بالزّمن والمكان الثابتين والمعروفين من النّاحية التاريخيّة الواقعيّة، أمّا عبارة "ذي وظائف متعدّدة " فالكلام عنها لا يعرف الحدود، باعتبار أنّ القراءة تتجدّد وتتغيّر عند كلّ فعل قرائيّ جديد، أو عند تجدّد الأدوات الإجرائية وتنوعها، ولذلك فالنّصوص الخالدة الّتي يملك أصحابها القدرات الفرديّة المتعلّقة بالمكاسب الذهنيّة المتنوّعة، توفرت لديها هذه المقومات التي أوجدت هذه الوظائف المتعددة.

ونخلص في الأخير، انطلاقا من هذه التّعريفات وغيرها أنّ النّص مفهوم فلسفيٌّ يحمل خطابا أو جملة من الخطابات، تختزلها حروفه وألفاظه وتراكيبه تبعاً لهندسة تصميمه من النّاحيتين الظاهرة والمتوارية، والّتي تبقى حمولاتها الدّلاليّة متوقّفة على براعة الكاتب وتميّز القارئ.

الهوامش والإحالات:

1) ينظر ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدّين، لسان العرب ج 4، ط1، مادة (نصص)،دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت) ص684.
2) ينظر الزمخشريّ ،أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر ، الكشّاف ، مادة (نصص) ج 3 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، 1997 ، ص 514.
3) الفيروز آباديأبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي ، القاموس المحيط ، دار إحياء التراث العربي، ج1، مادة (نص)، بيروت، لبنان ، 1997،ص 858.

4) خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات العربيّة، دار الفكر اللبناني، ط 1،بيروت، لبنان، 1995، ص 136.
5) ينظر، منذر عياشي، مقالات في الأسلوبيّة، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط 1990، دمشق، سوريا، ص202 وما بعدها.
6) الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، تح السيّد أحمد صقر، دار المعارف، ط 3 ، القاهرة ، مصر، 1971، ص 35
7) الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تح محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، د ط بيروت لبنان 1981، ص300.
8) الغذامي عبد الله، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، النادي الثقافي الأدبي، ط 1، جـدّة، السعودية ، 1995، ص90.
9) مفتاح محمد، تحليل الخطاب الشّعريّ ، استراتيجيّة التّناص، المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص120.